قربان التاريخ.. شهادة حية لشاعر عراقي عاش التحولات المأساوية في الحياة العراقية المعاصرة.. شهادة تأرجحت بين قيام الدكتاتورية وهيمنتها على مجمل مفاصل الحياة والفكر بقوة الحديد والنار وبين سقوط رمز هذه الدكتاتورية وصنمها.هذا الكتاب يوميات مراقبة للقمع والمصادرة والموت مثلما هي رصد لحركة الشعر والفكر.هي قراءة امتزج فيها السياسي بالشعري. عبر يوميات قامت بوصف ومن ثم فهم حوادث مأساوية اشبه بفصل كابوسي من رواية دموية حدثت في عالم آخر غير عالمنا.

المدى الثقافي

قربان التاريخ
العراق من لهب العقل الى رماد النفط

صلاح حسن

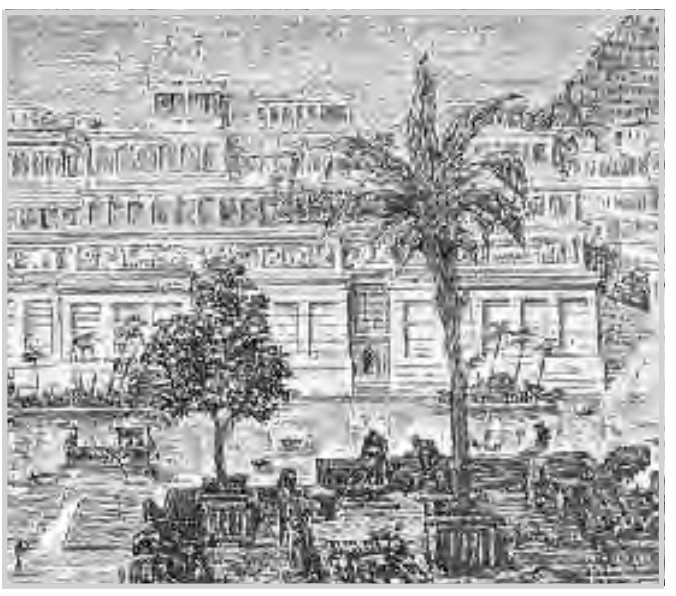

٣

الفلوجة

يضطر الانسان في بعض الاحيان الى الالتفاف حتى على نفسه من اجل التخلص من شعور طاغ . هذا ما فعلته ونحن على مشارف مدينة الانبار التي هي واحدة من اخطر بؤر المعارك في العراق الان. قال السائق بحزم ..سأسلك طريق المدينة بدلا من الطريق السريع .. في الاقل توجد قوات امريكية داخل المدينة . لم ينطق أي من الركاب بكلمة .

اول شيء صادفناه هو جامعة الانبار التي تحولت الى مقر للقوات الأمريكية وكانت محاطة بعدد كبير من الدبابات . الملفت في الامر هو عدد الدوريات الأمريكية التي ترابط في كل شارع والعجلات الصغيرة التي لاتتوقف عن الحركة. خرجنا بسرعة الى الطريق المؤدية الى بغداد وكان التوتر باديا على الركاب . اطلقت تنهيدة قوية جعلت السائق يفتح النافذة وهو يقول : بعد ساعة ينتهي كل هذا العذاب .. لم يبق امامنا سوى (الفلوجة).

كنت اعرف أن الفلوجة هي مصدر رعب العراقيين والامريكان على حد سواء ، لاتمر ساعة من دون أن تحدث مواجهات فيها. اضاف السائق : نحن الان بيد الله .. علينا أن نترك الامر لله .. وسرعان ما بدأ الرجلان الكبيران بقراءة آيات من القرآن بصوت خفيض . لقد بقيت امامنا ساعة .. هذا ما قاله السائق .. ولكن الزمن بالنسبة لي قد توقف . شعرت بالاختناق (درجة الحرارة تقترب من الخمسين مئوية) كانت الساعة تشير الى الثانية ظهرا وتوقفت عند هذا التوقيت . هكذا خيل لي . سألت كم الساعة ؟ فأجاب احدهم انها الثانية والربع . فقلت ساعتي تعمل ببطء ! نزعتها ووضعتها في جيبي ولكنني كنت بين الفينة والاخرى انظر الى ساعة المترجم الذي يجلس الى جواري . سألته أن كانت ساعته تعمل بشكل جيد ؟ قال نعم ..

واضاف : (هذا هو مثلث الموت) وكان يقصد اننا دخلنا الفلوجة . كان صوت طائرات (الهليكوبتر) يسمع من مسافة بعيدة . اتسعت عيناي بشدة وانا ارى الكثير من الدبابات الأمريكية وهي تقلق المكان بحركتها المتوترة الخائفة . كان يجلس على كل دبابة جنديان في اتجاهين متعاكسين وهما مستعدان دائما لاطلاق النار . كان الخوف واضحا على وجوه الجنود الامريكان بسبب حركاتهم العصبية . سمعنا ضجة خلفنا .. كان رتل مسرع من الاليات الأمريكية وعلى الفور اتخذت السيارات المدنية الاتجاه الايمن من الطريق فاسحة المجال للرتل كي يمر . في الفلوجة يطلق الامريكان النار على أي شخص يقوم بحركة غير طبيعية ، لذلك يبقى كل شيء جامدا حتى يمروا . مرة اخرى تتباطأ السيارات وتتخذ الاتجاه الايسر لان الرتل قادم من بغداد باتجاه الفلوجة . كانوا يسيرون بسرعة كبيرة خوفا من قاذفات الـ(ر ب ج ٧) التي يمكن أن تنطلق من أي مكان . وكان الشارع بمثابة ساحة حرب لا احد يعرف متى تنطلق فيها النيران وفي أي اتجاه . خرجنا من الفلوجة ولكن الخطر مازال ماثلا ، فالمسافة الممتدة بين الفلوجة وسجن (ابو غريب) الرهيب تنتشر فيها بساتين النخيل الممتدة على جانبي الطريق وغالبا ما تنطلق الهجمات الخاطفة من هناك .. اذ يستطيع المهاجم أن يختفي بسهولة في تلك البساتين .

كان يتنازعني احساسان : الموت بطريقة مجانية وانا على مقربة عدة كيلومترات من اهلي ، ونفاد الصبر وعبث الرحلة كلها . ولكن سرعان ما تبخرت هذه الاحاسيس .. فهذه بغداد لم ترحل .. ولكنها محطمة ، محروقة ، هرمة ، غير انها تتنفس من جرحها . فجأة شعرت بحرارة الجو الخانقة .. مشهد المباني العديدة المحترقة يفرض عليك احساساً بالاختناق . الازدحام في شوارع بغداد غير معقول على الاطلاق .. اكثر من ٧٠٠ الف سيارة تسير في شوارع بغداد من دون اشارات ضوئية من دون شرطة مرور.

انها الفوضى بأعلى تجلياتها .. ابواق السيارات تسمع في كل مكان . وصلنا كراج علاوي الحلة-احد اكبر (الكراجات) في بغداد-والمواجه للمتحف العراقي . كان هناك ثقب كبير في جدار المتحف ، واضح انه من جراء قذيفة ضخمة وكانت هناك دبابة امريكية تحرس المتحف (بعد خراب البصرة) !! .

نزل الركاب فذكرت السائق بأنه ينبغي أن يوصلني الى منطقة الدورة . اين في الدورة ؟ سأل . في حي الصحة . عندما وصلنا حي الصحة لم استطع أن اجد بيت اختي .. لقد تغيرت المنطقة تماما والمساحات التي كانت خالية قبل عشر سنوات تحولت الى مناطق سكنية كثيفة . قلت للسائق الذي بدأ يفقد صبره .. لنسأل احد المارة . اشار الرجل الى شارع قريب فتذكرت المكان على الفور . قلت للسائق هنا .. عند هذا الباب الابيض . نزلت من السيارة وانا ارتجف من شدة التوتر . كان الباب مفتوحا ولكنني قرعته بشدة فخرج ابن اختي الكبير ، نظر الي للحظة ثم صرخ بشدة (تعالوا .. خالي صلاح وصل) فخرج جمع كبير من الاطفال والنساء وهم يبكون ويصرخون وراحوا يعانقونني بحرقة . بعدها تجمهر الجيران لرؤية ما يجري . لم استطع التوقف عن البكاء .. السائق كان يراقب المشهد بذهول ودموعه تترقرق من عينيه . الاطفال الصغار وحدهم عجزوا عن تفسير ما يحدث . سألت طفلة اباها .. بابا من هذا الرجل ؟ نظر الي بحيرة وقال : هذا جدو .. جدو صلاح !.

الوصول الى قرى بابل

لم امكث في بغداد سوى ساعة .. كنت اتحرق شوقا لرؤية امي العزيزة . في تلك الاثناء ذهب ابن اختي الاصغر ليزف النبأ السعيد الى اختي الاخريين اللتين تسكنان في حي السيدية القريب من الدورة . صرخ الاطفال الذين كانوا يملأون البيت أن خالة ابتسام وخالة فاطمة قد حضرتا . دخلتا تتراكضان واخذتا تعانقانني وبدأت دورة جديدة من البكاء . كانت لدى اختي ابتسام سيارة حديثة انطلقنا بها الى الحلة 90 – كم جنوب بغداد - كان ابن اختي يقود بسرعة كبيرة اضطررت الى تنبيهه عدة مرات . كان يقول نعم سأخفف السرعة ولكنه يقود بالسرعة نفسها . وصلنا بأسرع مما كنت اتوقع . وفي مركز المدينة توقف علي قرب مكتب للموسيقى الشعبية . تكلم معهم بسرعة وعاد الى السيارة فسألته ماذا ننتظر ؟ قال الفرقة الموسيقية . فقلت لاضرورة لها .. غير أن اختي الصغرى تدخلت : ينبغي أن يعرف الجميع انك عدت. قبل أن نصل البيت بخمسين مترا اشار علي الى الفرقة كي تبدأ فبدأت ارتعد واخذت الدموع تترقرق في عيني . ما أن وضعت قدمي داخل الدار حتى بدأوا بأطلاق النار في الهواء وقام احدهم بنحر خروف كان قد اعد لهذه المناسبة . توجهت فورا الى امي التي كانت تجلس على احد الاسرة القديمة في باحة الدار وانخرطت ببكاء كنت اختزنته لمدة احد عشر عاما . قبلت وجهها ويديها وعينيها وفوطتها وعباءتها .. كنت اريد آن اعود الى رحمها الدافئ من جديد . وكانت هي تضمني الى صدرها وهي تبكي وتقول : الحمد لله ، لقد رأيتك قبل أن اموت .. لا اريد أي شيء من الدنيا بعد الان . قبلت اخوتي واخواتي وابناءهن وازواجهن .. قبلت الجميع فيما كانت النساء يلقين فوق رأسي الحلوى وكأنني عريس في ليلة زفافه .

في اليوم التالي ، وبعد أن اطمأننت على استقرار الحالة الصحية لامي قررت أن اقوم بجولة قصيرة في المزرعة التي تبعد اربعة كيلومترات عن مدينة بابل التاريخية ، لقد كانت دهشتي كبيرة ، اذ وجدت في الحظيرة ابقارا هولندية .. كيف جاءت الى هنا؟ يالها من مصادفة ! . كان اهلي قد اقتنوا كلبا جديدا بعد ان مات كلبهم الاول. المفاجأة الاخرى كانت حين وجدت في احد حقولنا المحروثة حديثا قطعة من الطابوق وعليها كتابة مسمارية واضحة وسليمة !! حملتها وعدت الى البيت مسرعا وطلبت من امي ان تحتفظ بها في مكان امين . لقد فكرت مباشرة بكلكامش .. فقد يكون قد مر من هنا قبل ثلاثة الاف سنة ، او قد تكون أنانا الصبية قد التقت بأحد عشاقها ومارست معه الحب تحت ظلال نخلة ما؟؟ (مدينة بابل التاريخية تتعرض للدمار بسبب وجود قاعدة امريكية فيها تستخدم الطائرات وآليات ثقيلة مما تسبب في انهيار سقف معبد (ننما) ومعبد (نابو) وجزء من قصر الملك نبوخذ نصر. وهناك شركات تنقيب غير معروفة لا احد يعرف ماذا تفعل ، لان الامريكيين لا يدعون احدا يدخل الى المدينة الاثرية) .

بعد هذه الجولة قررت ان ابدأ بالمهام الاخرى التي جئت من اجلها . المهمة الاولى هي مشروع إرسال الكتب من الجامعات الهولندية الى الجامعات العراقية المتضررة . والثانية البحث عن قطعة ارض في مدينة بابل لمشروع بناء معهد مسرحي اتفقت عليه مع المخرج المسرحي العراقي حازم كمال الدين الذي يقيم في بلجيكا. اتصلت عن طريق الثريا بالدكتور عصام الخفاجي من اجل ترتيب موعد مع احد المسؤولين الامريكان .. لكن الدكتور عصام لايرد . اتصلت اكثر من عشر مرات من دون جدوى فقررت أن ابدأ بالمهمة الثانية .

استأجرت (تكسيا) وطفت في جهات المدينة كلها . اخترت ثلاث مناطق وعملت في اليوم التالي موعدا مع المحامي لمعرفة اجراءات البيع والشراء . عاودت الاتصال بالدكتور عصام بلا طائل . كنت قد سمعت من اخوتي أن احد اصدقائي اصبح محافظا لمدينة بابل فقررت زيارته .. انه السيد اسكندر وتوت ، وعائلة وتوت معروفة في المدينة كلها . دخلت على مدير المكتب فرحب بي وانا اشرح له سبب الزيارة . بعد عشر دقائق دخلت على المحافظ الذي استقبلني بلطف . شرحت له بأختصار المشاريع التي جئت من اجلها فتناول التلفون واتصل بالدكتور فاضل فرهود رئيس جامعة بابل وعمل لي موعدا معه وقال : سأوفر لك سيارة لهذه المهمة . فقلت شكرا لدي سيارة وودعته لمقابلة رئيس الجامعة .

كان رؤساء الاقسام موجودين ، وعندما طلبت منهم أن يزودوني بقوائم المصادر التي تحتاجها الجامعة قال احدهم نحن مقطوعون عن العالم منذ ثلاثة عشر عاما ولا نعرف الكتب التي صدرت اخيرا .. نريد مصادر في الطب والهندسة والفيزياء ..الخ . سألت رئيس الجامعة إن كانت لديهم اماكن لخزن الكتب (كنت قد اتفقت مع المحافظ الذي تعهد لي بحماية الكتب من السرقة والمساهمة بنقلها من ميناء ام قصر الى مدينة بابل) .. قال رئيس الجامعة : نعم لدينا مخازن وسيارات كبيرة لهذا الغرض .

بعد هذه الجولة الطويلة عدت الى بيتنا في القرية فوجدتهم قد اعدوا اصنافا عديدة من الطعام اللذيذ . قبلت امي وجلست الى جوارها . كان عدد الحاضرين كبيرا .. خصوصا الاطفال حيث بدا البيت كأنه مدرسة ، لذلك تناولنا الطعام على شكل مجموعات كما يقتضي العرف العشائري ، الرجال اولا ثم النساء والاطفال . بعد ساعة سمعت المؤذن وهو يعلن عن صلاة الظهر فهرع الجميع صغارا وكبارا واخذوا يصلون متجاورين او على شكل صفوف . كنت انا الوحيد الذي لا يصلي وسط هذا الجمع ، وكنت انظر اليهم وهم يؤدون حركاتهم المقدسة بتلك الآلية التي لا تعرف الخطأ . بعد ان انتهوا من الصلاة توجه اكثر من واحد الي ونصحني بالصلاة . فقلت بسرعة ، وقبل ان يتسرب الغضب الى نفسي : لكم دينكم ولي ديني .

في السادسة مساء ذهبت الى المحامي واخبرته بالمناطق التي اخترتها .. الاولى كانت على شاطئ الفرات ، وهي خضراء وهادئة. قال:إنس هذه المنطقة . لماذا ؟ سألته بأستغراب . قال : لقد اشتراها اليهود ! (يوجد في مدينة بابل الكثير من قبور انبياء اليهود مازال الكثير منها عامرا حتى الان) . في النهاية اتفقنا على قطعة ارض بعيدة عن مركز المدينة ولكنها قريبة من مدينة بابل التاريخية . قال انه سيتكفل بالتفاصيل .

قضيت الايام التالية مع الاصدقاء الذين فارقتهم سنوات طوال. حدثني بعضهم كيف كانت المخابرات تستجوبهم من اجل الحصول على معلومات عني. وبعضهم الاخر اخبرني عن التقارير المخابراتية التي كتبت ضدي ومن كتبها . (بعض هذه التقارير موجودة لدى شخص اسمه الحاج بدري وهو يرفض تسليم هذه التقارير حتى تشكيل حكومة عراقية كي تقوم بمحاكمة البعثيين الذين كتبوها وساهموا في قتل وتشريد العديد من الناس الابرياء) .

تلقيت دعوات كثيرة من الاصدقاء ، وفي احدى الجلسات .. وكانت تضم اصدقاء حميمين جدا وصفني احدهم بالبطل (ايام الانتفاضة كنت اقود مجموعة مسلحة في بابل ، سأروي ذلك في الصفحات القادمة) والاخر بالمناضل والثالث بالشاعر الكبير . اخجلني هذا الاطراء . حدثوني كيف كانوا يستنسخون قصائدي ومقالاتي من الصحف التي تصلهم من الخارج بشكل سري ويوزعونها على الاخرين . فرحت جدا لان سنوات المنفى لم تذهب سدى .

عندما عدت من هذه السهرة جمعت اخوتي وسألتهم كيف كانت المخابرات العراقية تستجوبهم؟. اخي الكبير قال : انت تعرف أنني بلا عمل منذ هروبك من العراق ولكنني اعمل احيانا في سوق الهرج (سوق الحاجيات المستعملة) ولكنهم كانوا يأتون الى هناك ويطلبون مني أن ازورهم في مديرية الامن وان اقدم لهم شرحا مفصلا عن اتصالاتك واخبارك . مرة جاء ضابطان من مخابرات عدي وقالوا لي قل لاخيك أن يترك هذا العبث وان يعود الى البلد (ونحن في خدمته) . اخي الاصغر وهو ضابط كان قد تحمل الوزر الاكبر قال : كان لايمر اسبوع من دون أن استدعى إلى الاستخبارات العسكرية . لقد قلت لهم اننا (تبرأنا) منك ولكنهم لم يتركوني ابدا .. طلبوا مني أن اتعاون معهم .. آن اكتب لهم التقارير عنك بالتفصيل فقلت لهم سأفعل . نقلوني الى منطقة نائية ، ومرة كنت احاول أن اطلع على البريد القادم الى وحدتي العسكرية فأتهموني بأنني احاول تسريب معلومات عسكرية محرمة واقتادوني الى السجن .

الموت يسفر عن اقنعته

قضيت اسبوعا في مدينة بابل وقررت أن اذهب الى بغداد ولكن اختي اصرت على أن تصطحبني معها الى مدينة الصويرة (٩٠ كم شرق بغداد وهي المدينة التي انجبت الزعيم عبد الكريم قاسم) . عاد علي ابن اختي يقود السيارة بسرعة.. وبعد أن مللت من تحذيره اخرجت جريدة وبدأت اقرأ بها . فجأة انحرفت السيارة وبدأت تسير على عجلتين ثم انقلبت واستقرت على احد جانبيها في ارض مزروعة على جانب الطريق . خرجت فورا من الشباك الخلفي الذي تحطمت زجاجته وانا مندهل . اخرجت ابن اختي الصغير وحاولت أن اخرج اختي التي بدت ثقيلة جدا . كنت خائفا من (جلكان) البنزين الموضوع في مؤخرة السيارة .. ربما يشتعل حريق وقد تنفجر السيارة وتموت اختي .

بعد دقيقة آو اكثر حضر عدد من القرويين واعانونا على اعادة السيارة الى وضعها الطبيعي واخراج اختي التي كادت تموت من الرعب . اخرجوا ايضا (جلكان) البنزين ووضعوه بعيدا . كنا مازلنا تحت تأثير الصدمة حين حضرت دورية امريكية . سألنا الضابط الامريكي إن كنا بحاجة الى مساعدة طبية ؟ قلت وانا استرجع بعضا من وعيي اننا على ما يرام . كانت السيارة قد اصيبت بأضرار بالغة . لقد كانت معجزة أن ننجو. لااستطيع حتى الان وصف ذلك .

بعد يومين ذهبت الى بغداد وكنت دعيت إلى المشاركة في مهرجان الجواهري الشعري الاول . استأجرت سيارة (تاكسي) في الطريق الى كلية الاداب .

كانت السيارة تسير ببطء في مدينة السيدية بسبب الازدحام الشديد الذي احدثه وجود رتل من الدبابات الأمريكية على بعد ثلاثين مترا . فجأة يحدث انفجار هائل في احدى الدبابات ثم اطلاق نار في كل الاتجاهات .. السيارات تصدم بعضها بعضا والناس يتراكضون على غير هدى .. طائرات (هليكوبتر) تحلق فوق المكان .. فوضى عارمة ورعب شامل لا يحدث حتى في الافلام السينمائية . في اليومين التاليين مكثت في بيت اختي استرجع ما حدث لي خلال الزيارة . اتصلت بالعزيزة آنا وقلت لها إن كل شيء على ما يرام وان صحة امي مستقرة وسوف اعود الى هولندا بعد اسبوع . كنت قد اتفقت مع احد الاصدقاء الصحفيين على اجراء مقابلة للجريدة التي يعمل لها . كان مبنى الجريدة في منطقة الكرادة وهي حي راق من احياء بغداد . انهيت المقابلة بسرعة لانني كنت على موعد مهم مع صديق كان قد اصبح (جنرالا) كبيرا وهو مرشح لان يتسنم منصبا في وزارة الدفاع الجديدة ولديه علاقة وطيدة مع الامريكان .. وقد وعدني انه سيجمعني بجنرال امريكي من اجل انهاء مهمة الكتب التي سأجلبها من هولندا الى العراق . خرجت من مبنى الجريدة ووقفت انتظر سيارة تكسي . توقفت بقربي سيارة سوداء من نوع (دولفين) وسمعت احد ركابها يقول لرفاقه : (هذا الاجنبي – يقصدونني –انزلوا واجلبوه بسرعة)؟ طار صوابي وانا اسمع هذا الكلام. عبرت بسرعة الى الجانب الاخر من الشارع واوقفت سيارة وقلت للسائق بسرعة ارجوك الى ساحة الاندلس . كان قلبي يخفق بشدة . وكنت اتنفس بصعوبة وانا اتلفت للخلف بين لحظة واخرى . لقد كانت العصابة تظن أنني اجنبي لا افهم اللغة العربية وان حقيبة الظهر التي احملها مليئة بالدولارات . بعد هذه الحادثة قررت أن اعود الى هولندا بأسرع وقت ممكن .

فاعلية المثقف العراقي في صياغة الدستور

أحمد الناجي

لا بد للفئة المثقفة العراقية من أن تجترح الوسائل والأساليب ليكون منجزها الفكري حاضراً ومساهماً في عملية صياغة مسودة الدستور، وهي معنية أكثر من بقية الفئات بهذه العملية لكونها القوة الخلاقة التي تمتلك مؤهلات وخبرات معرفية وفكرية، أثبتت حقائق ومعطيات التجربة التاريخية والإنسانية خطأ تهميشها أو الاستغناء عنها، فأدواتها تتكامل مع أدوات السياسي لإنجاز هذه المهمة المفصلية، والتعاضد بين أدوات المثقف والسياسي في ميدان هذه التجربة ضمانة لقدر كبير من اشتراطات نضجها، إضافة الى كونها مقدمات توفر سبل ومقومات نجاح العملية السياسية برمتها الجارية في عراقنا.

والمثقف في حاضر العراق الجديد الذي ما زال في طور الولادة، معني لإثبات ذاته الفاعلة في صياغة مسودة الدستور، والقيام بدور مؤثر فيها ولاسيما أنها تشكل أخطر تحدياً يهدد عملية التحولات السياسية والاجتماعية، فحينما يتمكن من تحقيق هذا الدور أي إنتاج ثقافة حية يقوم عليها إنتاج المجتمع نفسه، يحق له آنذاك أن يكتسب صفة المثقف بحسب تعبير غرامشي الذي اعتبر المثقف هو من يقوم بنشاط ذهني مهما كان بدائياً شرط أن يكون مؤثراً بوظيفته الاجتماعية المباشرة، كبانٍ ومنظم في الحياة العملية.

وقد عرف الدستور من وجهة النظر الاجتماعية بأنه عقد تآلف بين شركاء الوطن، وهو من وجهة النظر القانونية بمثابة القانون الأساس للدولة الذي يخضع له الجميع ويحتكم اليه الحاكم والمحكوم، ويحدد صلاحيات السلطات (التشريعية والقضائية والتنفيذية)، وينسق آليات العلاقة بينهما على وفق مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث، مثلما يحدد واجبات المواطن وحقوقه الأساسية سواء السياسية أو الإنسانية، وينظم العلاقة بين المواطن والحكومة.

وفي ظرف تعقيدات حاضرنا تأتي أهمية صياغة الدستور ليست لأنها تؤسس الى عقد اجتماعي بين جميع مكونات الشعب فحسب بل إن تحويل هذا الاستحقاق الى منجز سيدفع بالعملية السياسية الى الأمام، ويدعم بناء مرتكزات النهج الديمقراطي لعراق مستقل فيدرالي موحد تعددي ينعم بالحرية والاستقرار.

ومن هنا يبرز الدور الطليعي للثقافة في مسيرة التحولات السياسية والاجتماعية المتصاعدة باتجاه الديمقراطية، فلا بد للمثقف من أن يتخلص من حالة التحييد التي فرضتها مكبلات الاستبداد في سني الديكتاتورية المضنية التي عمقت مفهوم حرفية الثقافة، مختزلة فضاءها الرحب الى حيز مؤسسة في خدمة سلطة النظام الشمولي، مثلما عليه في ما توفر من فسحة للحرية في راهننا الاستثنائي أن يتحرر مما تنسجه سلطة السياسي من أطواق تبتغي ارتهانه، وهذا لا يعني التحريض على الابتعاد عن المشهد السياسي، بقدر ما هو دعوة لخلق مناخات وتأسيس سياقات مشاركة حامل الفكر، وصاحب المنجز الإبداعي في الحياة السياسية بحيث يكون فاعلاً في مجرياتها بالقدر الذي يمكنه من تأسيس سلطته الثقافية بمحاذاة السلطة السياسية، آنذاك سيكون الحراك الثقافي ضمانتنا في مواجهة تحديات استحقاقاتنا التي صير القدر كل واحد منها معضلة، لتحويلها على شاكلة ما تحقق في الانتخابات الى منجز داعم لمسيرة التغيير بالتزامن مع إعادة إعمار البنى التحتية للدولة، وإحياء المنظومة القيمية الاجتماعية، كخطوة أولى على طريق الإنماء المعرفي والثقافي القادر على تجديد الفكر بالشكل المتماهي مع مسار التغيير الديمقراطي الجاري في البلد، وعلى وفق حاجاتنا في مواكبة إيقاعات العصر الرقمي.

بوكاشيو: من مصنع الاكاذيب الى بدايات القص الأوروبي

غسان كاظم

مما لاشك فيه ان الاصول التراثية للقصة القصيرة، تعود ببداياتها الاولى في استخدامات صيغ الكلام العامية الشفاهية في لغة القص كما هو حاصل في الاداب القديمة، عن بوتشيو، وبوكاشيو، وهوميروس، والف ليلة وليلة، قبل التدوين، وتعد الشفاهية واحدة من اهم العناصر التي انبثقت عنها مقومات القصة القصيرة، حيث يقوم الحكواتي او الراوي وسط مجموعة من الناس، يسرد تجاربه الشخصية ومذكراته، او يستمد حكاياته من الخرافات واحداث التاريخ، والقصص الديني، او رحلاته ومشاهداته عبر البلدان، عبر انماط الكلام الشعبي واستخدام الثقافة العامة، وربما يقوم الراوي باداء نوع من حركات التمثيل، في محاولة للاقناع والتشويق لامتاع مستمعيه، وكانت هذه الحكايات او القصص من النمط الشائع في اوساط العامة في مختلف البلدان والشعوب القديمة، بوصفها نوعاً من المتعة، خاصة في اوقات الفراغ او الاستراحة من الاعمال الجادة، وغالباً مايعمد الراوي الى اظهار البراعة والفطنة في سرد قصصه، وهو يختار نماذجه من بين بسطاء الناس في الغالب كالفلاحين، والكسبة، والفقراء من القرى والارياف، او من قصور الملوك والسلاطين، بما يحدث فيها من مؤامرات ودسائس وخيانات، مستقيا مادته من واقع الحياة والحوادث اليومية، وعلى مر الازمان خصصت في بعض المدن اماكن ترفيهية للحكايات والقصص، ففي القرن الرابع عشر اسس اول ناد للقصة بايطاليا في مدينة روما متخذا مقره بقاعة كبيرة في مبنى الفاتيكان، اطلق عليه اسم (مصنع الاكاذيب)، دأب على الحضور اليه عدد من مساعدي البابا واصدقائهم، لازجاء اوقات فراغهم في اللهو والتسلية وتبادل القصص والاخبار الشيقة والغريبة، وفي (مصنع الاكاذيب) هذا كانت تخترع او تقص كثير من النوادر والحكايات الطريفة عن رجال ونساء ايطاليا، وعن البابا نفسه، مما دعا الكثير من الاهالي الى التردد على هذه الندوات حتى لايهزأ بهم في غيبتهم وكان من اكثر رواد (مصنع الاكاذيب) مثابرة واخصبهم خيالا رجل غريب الاطوار اسمه (بوتشيو) الذي اشتغل نصف حياته سكرتيرا للبابا، تزوج وهو في السبعين، فتاة في الخامسة عشرة، وبدأ بهذا الزواج حياته الادبية، فدون النوادر التي قصها وسمعها في مصنع الاكاذيب، فأعطاها بذلك شكلا ادبيا اسماه (الفاشيتيا) تداولته بعده اجيال عديدة من الكتاب، اما المحاولة الثانية، فقد ظهرت ايضاً في القرن الرابع عشر في ايطاليا على يد (جيوفاني بوكاشيو ١٣١٣-١٣٧٥) باصداره كتابا ضمنه حكايات مليئة بالاثارة والمتعة، يدعى (الديكاميرون) او المائة قصة، التي استمدها من مصادر عديدة ومتباينة، منها المصري والغربي، والفارسي والايطالي والفرنسي، ولم يخترع بوكاشيو قصصه، انما دون ماسمعه في (نابولي) وغيرها من المدن الايطالية، لكنه كساها واضفى عليها اسلوبه وصياغته المشوقة ما جعلها تستأثر باهتمام ومشاعر القراء، فغدت عائديتها له، و (الديكاميرون) تعد تحفة فنية في زمانها، ليمتد تأثيرها بعد ذلك لعدة قرون، تلك المجموعة من القصص التي اسندت رواية حكاياتها الى عشر شخصيات، سبع فتيات وثلاثة شبان، كانوا قد اعتزلوا مدينة فلورنسا بعد ان اجتاحها الطاعون باتجاه الريف (بعد ان جمعهم الرعب والخوف الذي اثاره الموت الاسود في عام ١٣٤٨، وفتك بحوالي نصف سكانها، فشاؤا ان يفروا منه وان يلوذوا بعزلة بهيجة في حدائق قصر يقع على قمة تل، حيث حاولوا ان ينتزعوا انفسهم من حاضرهم الرهيب المظلم، بان يتناوبوا على رواية القصص فيروي كل منهم قصة في كل يوم، فكانت الحصيلة عشر قصص يوميا خلال الايام العشرة)، وتتجسد موهبته في حكاياته المفعمة بالتشويق، والسخرية اللاذعة ذات المغزى والمرح، واحيانا يغلب عليها طابع البهجة او يتلبسها الحزن، حسب طبيعة الحكاية التي تروى على لسان الرواة العشرة الذين انتدبهم لسرد قصصه، التي سعت الى معالجة العلاقات المتباينة في مجتمعه، وتصوير حياة بلده في القرن الرابع عشر، اذ تناولت موضوعات مختلفة على مدى الايام العشرة، وتنوعت في محاور عدة لمهمة النقد والتعرية والوعظ والحث على الفضيلة، وكشف نزعات الانسان ورغباته الدفينة (كاتخاذه الجنس وسيلة للدروس الخلقية، واظهار عيوب المجتمع، وبيان اسباب خيانة المرأة للرجل، وايضاح بعض مظاهر غباء الرجال حينما يفرطون في الثقة، او يستبيحون لانفسهم من المتع مايحرمونه على نسائهم) مثلما تميزت قصصه في كشف غوايات الرجال ومباذلهم، ومظاهر السذاجة والفجور، ولحظات الحب، وتصوير حالات النفاق والخداع والكذب، وتجلت براعته في رصد مختلف الاحداث والمواقف المتناقضة، وقد استطاع بموهبته، ان يفوق معاصريه او السابقين عليه من الكتاب بما اكتنزت به قصصه من كثافة في التركيب والوصف والحوار، التي تعد الارهاصات الاولى في بناء القصة الحديثة، ولعله اول كاتب اوروبي ادخل هذه التقنيات الفنية ممهداً بذلك الطريق لمن بعده من الكتاب، وهذا يفسر سر انتشار وترجمة اعماله الى كل اللغات (فقلده الكثيرون في ايطاليا، وبقية كتاب البلدان الاوروبية، مما دفع بايطاليا الى مكان الصدارة في الحياة الثقافية، بين دول القارة، وواصلت قصص بوكاشيو تأثيرها على امتداد القرن الخامس والسادس عشر، وهيمنت على اجواء الفن دون تجديد واضح او تطور يذكر، حيث شاعت قصصه، وكان مقروءا على نحو واسع تاركا بصماته الواضحة على عدد من كتاب اوروبا، وبخاصة شكسبير).